اللغة العربية في مواجهة التحديات

محمد عدنان سالم(*)

أولاً: التحديات التاريخية

لم تواجه لغة في العالم ما واجهته اللغة العربية - على مر التاريخ - من تحديات، ولم تصمد صمودها.

١ - لغة القرآن:

فبعد نقائها ونصاعة بيانها الذي تجلّى على ألسنة العرب في أسواقهم التي تصدَّرها سوق عكاظ، فكان أرقى نموذج لها؛ عهد إليها الوحي الإلهي بحمل رسالة الإسلام إلى الإنسانية بأصقاعها وأجيالها كافة، فكان ذلك أول تحدٍّ لها وأخطره ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧].

تبدو لنا خطورة هذا التحدي من المدى البعيد الذي كان عليها أن تبلغه بسرعة قصوى لم يسجل التاريخ نظيراً لها؛ فلقد انطلقت الدعوة الإسلامية بلسانها العربي المبين فيما يشبه الطفرة، لتشمل في أقل من ربع قرن قسماً كبيراً من قارتي آسيا وإفريقية، ولِتَرِثَ أكبر حضارتين عالميتين آنذاك؛ هما الفارسية والرومية.

وتبدو لنا عظمة هذا التحدي من القبول الطوعي لِلُغة الدعوة والترحيب بها

(*) باحث في الأدب والتراث من سورية.

من قبل شعوب البلدان المفتوحة، إلى درجة العشق والتبني والإسهام الفعال في وضع قواعدها النحوية والصرفية، وأوزان أشعارها، وأساليبها البلاغية[١].

لم تفرض الدعوة الإسلامية لغتها بقوة القانون، ولم تضق ذرعاً باللغات المحلية والقومية، ولم تطرح نفسها بديلاً منها، فقد كانت واعية كل الوعي لعالمية رسالتها ودورها الإنساني الذي يعترف بالتعدد واختلاف الألسنة والألوان والأجناس، ويرى في ذلك وسيلة من وسائل النمو والتعارف بين الشعوب ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣].

وبهذا الاختيار الواعي انتشر تعليم اللغة العربية، لغة القرآن والأذان وشعائر الحج، في كل بقعة وطئتها قدم مسلم. ولم يكن قد مضى على انطلاق الدعوة الإسلامية كبير وقت؛ عندما بُني مسجد (هوايشينغ)، أولُ مسجد في مقاطعة (كانتون) في الصين، وكان تعليم العربية لغةِ القرآن والصلاة مواكباً لبناء المسجد، وما فتئت المدارس الإسلامية التي تدرس بالعربية والصينية معاً[٢] تتنامى منذ ذلك التاريخ، من دون توقف، حتى بعد تأسيس الصين الشعبية عام ١٩٤٩م.

ولئن كان ذلك يوضح لنا السرعة الخارقة التي وصلت بها دعوة الإسلام بلسانه العربي المبين إلى الصين في أقصى الشرق، فما عساها تكون في إفريقية التي استقبلت أول هجرة في الإسلام، ضمّت كوكبة من

---

(١) سيبويه (عمرو بن عثمان) ت ١٨٠هـ/ من شيراز في بلاد فارس – ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم) ت٣٧٦هـ من بلاد فارس – ابن جرير الطبري (محمد بن جرير بن يزيد) ت ٣١٠هـ من طبرستان – الخوارزمي أبو بكر محمد بن العباسي ت ٣٨٣ (أصله من طبرستان مستقره خوارزم) – ابن هندو (أبو الفرج علي بن الحسين) ت ٤٢٠ من فارس.

(٢) الدعوة إلى الإسلام، تأليف سير توماس .و. أرنولد ص٣٣١ وما بعدها / مكتبة النهضة المصرية، ط ١٩٥٧.

أصحاب الرّسول الذين هاجروا إلى الحبشة في السنة الخامسة من بعثته ﷺ، فراراً بدينهم من الفتنة، بعد أن كانت قد استقبلت كثيراً من القبائل العربية قبل الإسلام استوطنت الحبشة والسودان؟!

ثم كان من تأثير اللغة العربية في إفريقية نشوء اللغة السواحلية المكونة من العربية ولغات إفريقية أخرى، انتشرت داخل القارة الإفريقية، وقامت بدور الوسيط لإدخال الكثير من المفردات العربية إلى اللغات الإفريقية، ولإعطاء اللغة العربية مكانة مميزة في معظم البلدان الإفريقية.

وإننا لنجد التأثير ذاته في اقتحام نسبة كبيرة من المفردات العربية؛ سائر لغات البلدان الشرقية التي دخلها الإسلام، كالهند، وباكستان، وتركية، وإيران، وأفغانستان، ومعظمها ما زال يستخدم الحرف العربي في لغته ويكتب به(٣).

وفي الأندلس التي احتضنت ازدهار الحضارة العربية الإسلامية قروناً، كان الغرب فيها يغطُّ في نومٍ عميق، يلفُّه الجهل والتخلف من سائر أركانه، ترك المسلمون بلغتهم العربية تراثاً علميًّا ثرًّا لا يحصى عدده، مثلما تركوا بصمات وكلمات كثيرة لا تزال مبثوثة في اللغة الإسبانية حتى اليوم، تحملها لافتات الشوارع مثل ساحة (ألي أتار) في غرناطة التي خلدت اسم علي العطار؛ المقاوم المسلم العنيد إبان نكبة الأندلس.

٢- أدب المهجر:

وعندما هاجر العرب - مسلمين ومسيحيين - إلى أمريكا اللاتينية، مطلعَ القرن العشرين الماضي، قاموا بتأسيس الجمعيات والنوادي

---

(٣) رحلة مع النقوش الكتابية الإسلامية في بلاد البنغال- د. محمد يوسف صديق، ط٢٠٠٤ / دار الفكر، ص ٤٥.

والمدارس والصحف، يمارسون بها نشاطاتهم الثقافية والاجتماعية، ويرفدون الثقافة العربية بأدب مميز استطاع - إلى حدٍّ ما - حماية أبنائهم من الانصهار والذوبان، ونسيان لغتهم في المجتمعات التي يعيشون فيها، ذلكم هو أدب المهجر[٤].

كان هذا أول التحديات الذي أثبتت اللغة العربية فيه قدرتها الخارقة، على الانتشار الجغرافي السريع لتصبح بحق لغة العالم الأولى، تؤثر في لغاته المحلية، وتتعايش معها دون أن تلغيها..

٣- التحدي العلمي:

أما التحدي الكبير الثالث فكان التحدي العلمي الذي فرضه ارتقاء المسلمين في معارج الحضارة، تحت راية الأمر الإلهي لهم بالقراءة، وحثهم على استخدام كل ما يتعلق بها من مفردات: الكتاب، والقلم، والقرطاس، والمداد، والعلم، والعقل، والتفكر، والنظر، والتدبر؛ فراحوا يجوبون الآفاق طلباً للعلم، ما إن يعثروا عليه في أي لغة وبأي وعاء حتى يترجموه ويدرسوه وينقدوه ويحللوه، ثم يصهروه في بوتقتهم ليعيدوا إنتاجه خلقاً جديداً خاضعاً لقيمهم ومعاييرهم.. لم ترعبهم فلسفات الإغريق التي أحكمت الكنيسة الإغلاق على كتبها في قبرص، خشية أن يضل بها الناس، فطلبها المأمون غرامةً[٥] عند فتحه الجزيرة، فكان سعيداً بالحصول عليها؛ ما إن وصلته حتى وضعها في أيدي مترجميه في بيت الحكمة، مثلما كان القبارصة سعداء بالتخلص منها.. ولم يلبث هؤلاء التراجمة أن استوعبوها، واشتقوا لها من العربية مفرداتٍ أكثر دقة في التعبير عن مضامينها..

---

(٤) ميخائيل نعيمة ت ١٩٨٨/ جبران خليل جبران ت ١٩٣١ / نسيب عريضة ت ١٩٤٦.

(٥) دور الكتب العربية العامة وشبه العامة ؛ د. يوسف العش / ط دار الفكر ١٩٩١ ، ص ٦٠.

٤- معركة التتريك:

وتتلاحق التحديات تروم النيْل من هذه اللغة العتيدة؛ فلا تخرج منها إلا أصلب عوداً وأكثر شباباً وحيوية.. خاضت معركة التتريك، فخرجت منها بمجموعة من المعاجم الطبية والعلمية[٦] والزراعية والعسكرية، ما لبثت أن وضعتها في التداول، وأسست عليها كلية للطب في جامعة دمشق؛ التي كانت الوحيدة في الوطن العربي التي تدرس الطب بلغة عربية فصيحة منذ عام ١٩١٩م.

٥- الاستعمار:

ثم خاضت معارك الاستعمار فكانت سجالاً: استطاعت في الجزائر بجهود جمعية العلماء[٧]، ومدارس تعليم العربية التي أسسها رئيسها عبد الحميد بن باديس[٨] أن تشعل ثورة نجحت في طرد المستعمر الفرنسي عسكريًّا، وما تزال بعد خمسين سنة من طرده تعاني الأمرَّين مما تركه لها من تلوث لغوي شوَّه لسانها، وذهب بشطر واسع من أبنائها؛ أنساه لغته، فقطع صلته بثقافته وتراثه، وأضعف مشاعر الانتماء لديه، وتركه حائراً بين بين؛ لا يدري أأعجميٌّ هو أم عربي؟! وما تزال المعركة محتدمة على أشدها بين تياري التعريب والفرانكوفونية[٩] في المجتمع الجزائري من جهة، وفي داخل الإنسان الجزائري الذي نُسِّيَ لغته على لسانه، وما تزال جذورها حيّة في ضميره؛ تنتظر المناخ الملائم لنموها من جهة أخرى.

(٦) مجلة مجمع اللغة العربية الجزء الخامس- المجلد الأول. ط ١٩٢٠.
(٧) أسست عام ١٩٣١.
(٨) عبد الحميد بن باديس: ت ١٣٥٩هـ=١٩٤٠م [الأعلام للزركلي مج٣ ص٢٨٩].
(٩) أدركوا الدعائم ١- اللغة. د. إبراهيم حقي ،ط ٢٠١٢ دار الفكر، ص٢٣.

ثانياً: التحديات الراهنة:

تلكم هي بعض التحديات التاريخية الكبرى التي واجهتها اللغة العربية بكفاية، فماذا عن التحديات الراهنة وما أسباب عجزنا عن مواجهتها؟!

١-العوْلمة:

ربما تكون العولمةُ أول هذه التحديات، فقد يبدو للمراقب - للوهلة الأولى - أن تيار العوْلمة الجارف، قد نجح في كسر الحواجز وإلغاء الفروق بين الثقافات، وأن ثورتي الاتصالات والمعلومات قد حوَّلتا العالم إلى قرية واحدة، من أبسط مقوماتها أن تتحدث بلغة واحدة، وتشعر بمشاعر واحدة؛ لتعمل تحت راية واحدة، تقودها حكومة واحدة..

لكن بعض التأمل في طبيعة هاتين الثورتين، اللتين تفجرتا بين يدي عصر المعرفة، الذي تنعطف إليه الإنسانية بسرعة مذهلة مودِّعة عصر الصناعة الآفل، سوف يلفت أنظارنا إلى حقائق مغايرة:

فالعوْلمة قناع، ما إن ينكشف حتى يبدو لنا الوجه الكالح المختبئ وراءه باسمه الصريح (الأمركة).

والأمركة (**بمعنى التفرد بحكم العالم**) حلم راود سدنة البيت الأبيض منذ انهيار الاتحاد السوفييتي الذي أخل بتوازن النظام العالمي.

أما الأمركة (**بمعنى فرض النمط الأمريكي للعيش، بكل مصطلحاته، على العالم**)، فواقع روَّجت له الآلة الإعلامية الضخمة التي واكبت تفوق أمريكا التكنولوجي المذهل.

والأمركة بكل أوجهها الثقافية والسياسية والعسكرية والاقتصادية، ترى فرض لغتها على العالم حقًّا ونتيجة طبيعية لهيمنتها، كي تكون لغة التخاطب بين المركز والأطراف.

لكن أحلام أمريكا الإمبراطورية التي تنتمي إلى عصور تاريخية قديمة، قد تجاوزها الزمن، وهي لا تمتُّ بصلة إلى عصر المعرفة القادم، بمنطلقاته الفكرية ومرتكزاته الإنسانية والقيمية.

لقد فجرت ثورتا المعلومات والاتصالات المعرفة بين أيدي أجيال البشرية القادمة، وألغت الاحتكار والتفرد، ووسعت دائرة التعدد لتصبح في متناول كل فرد..

فالقرية العالمية الواحدة، ستكون أزخر بالتنوع والتعدد، وأكثر وعياً بالديمقراطية - في الوقت ذاته - من أن تسلِّم قيادها للكبار، تمنحهم حق النقض (الفيتو) لتلغي به شخصيتها القائمة على التعدد، وحقها في الوجود والعدالة المساواة.

وسيكون أفرادها من كل لون ولسان وجنس على عتبة سباق واحدة، يفوز فيه من كان أنضج فكراً، وأبعد نظراً؛ مثلما تصبح اللغات كلها أمام امتحان صعب، يفوز فيه الأقدر منها على الاشتقاق والتركيب والاختصار والترميز؛ لاستيعاب سيل المعلومات المتفجرة.

٢-التقدم العلمي والتقني:

فالمنتِج للمعرفة وأشيائها هو المعنيُّ الرئيسي بتسمية المنتَج العلمي والتقني وتحديد رموزه ومصطلحاته، وما على المستهلك إلا أن يسميها بأسمائها، ويدرِّسها بلغتها إلى أن يستكمل نقصه العلمي ويتحول إلى مرتبة الإنتاج.. ولعمري إن هذا الزعم ينطوي على عدة مغالطات:

أولاها: أن أحداً من الأمم لم يأخذ به، فما من أمة أهملت لغتها لتدرِّس العلوم بلغة أخرى تحت هذه الذريعة، وهذه فرنسا تضع لكل مصطلح

أجنبي مصطلحاً بلغتها[١٠]، وتعد إهماله جرماً يعاقب عليه القانون. وهذه اليابان التي غزت العالم بمنتجاتها الصناعية والإلكترونية، من المؤكد أن جامعاتها تدرِّس العلوم بلغتها اليابانية، ولم يخطر ببالها أن تسوِّق لغتها مصاحبة لمنتجاتها.

وثانيتها: أن اتهام العربية بأنها لغة آداب فقط فِرْيةٌ دحضتها تجاربها التاريخية البعيدة إبان المأمون العباسي، والقريبة في تجربة كلية الطب في سورية. فالعجز ليس في اللغة، بقدر ما هو ضعف في الإرادة وخور في العزيمة؛ سوف يؤول بنا – إن استمر – إلى مزيد من الذل والتبعية والانهزام.

وثالثتها: أن التحوُّل في مدارسنا وجامعاتنا عن التعليم بلغتنا العربية إلى لغات أجنبية بدءاً برياض الأطفال جريمة كبرى وانسلاخ من الذات والهوية، سيكون وصمة عارٍ على جبين الجيل الذي هانت عليه نفسه قبل أن تهون عليه لغته.

إن تعلم اللغات الأجنبية شيء والتعليم بها شيء آخر، فتعلم اللغات الأجنبية وإتقانها أمر هام، وضرورة للتواصل مع العلم، أما تدريس سائر العلوم بلغة أجنبية، وهو الأمر الذي أخذ ينتشر ويتنامى في المدارس والجامعات الخاصة، فظاهرة خَطِرةٌ تجب معالجتها واستئصالها قبل أن تستفحل، مهما روَّج لها دعاة التغريب والتبعية..

وإن الاستخدام المكثف للغة العربية في التعليم بجميع مراحله، وفي نشاطاتنا الثقافية، ومعاملاتنا الاقتصادية، سوف يطور مصطلحاتنا، ويثبت حيوية لغتنا وقدرتها على استيعاب المستجدات، وهو ما يتطلب الكثير من الوعي والجهد..

---

(١٠) أدركوا الدعائم اللغة/ د. إبراهيم حقي، ط ٢٠١٢ دار الفكر، ص٢٣.

٣- العامية والفصحى:

تتنامى دعوات لاستخدام العامية بديلاً من الفصحى، بحجة أن اللغة كائن اجتماعي متطور[(١١)] ومتغير، ينتجه المجتمع حسب طاقته وحيويته، وحسب حاجاته وإنتاجه..

وتجاوباً مع هذه الدعوات قامت إذاعات وقنوات فضائية، تلوي ألسنتها، لتروِّج كل منها لعامية بلدها، وتمادى التعصب للعاميات، حتى أصبحت لغة الخطاب والمحاضرة والتعليم، وغدا كثير من المثقفين عاجزاً عن صوغ جملة واحدة بالفصحى؛ دون ارتكاب أخطاءٍ مخزية فيها، بسبب إهماله استخدامها، وإلفه استخدام العاميات.

لست من دعاة إلغاء العاميات لإحلال الفصحى محلها، فلكلٍّ دورهُ ومكانُه، إنما أدعو إلى تفصيح العامية لتقترب من الفصحى ما أمكن، ولترتقي باللغات العامية الدارجة فتتقارب. وقد أثمرت هذه الدعوة أواسط القرن الماضي، فاندثرت كلمات عامية هابطة، وحلت محلها كلمات فصيحة[(١٢)] درجت على ألسنة الناس، وحقَّقت فعلاً اجتماعيًّا أكد حيوية المجتمع وقدرته على تطوير لغته نحو الأسمى.. أما ترك العاميات تتطور عفويًّا لتواصل هبوطها وهجنتها، فلا أراه دليلاً على حيوية المجتمع، مهما حاول المتشدقون إضفاء صفات الحيوية والحراك الاجتماعي عليها.

ومن تجربتي الشخصية بصفتي ناشراً عربيًّا أتواصل يوميًّا مع ناشرين

(١١) في طرائق تدريس اللغة العربية . د. محمود أحمد السيد، منشورات جامعة دمشق ص٩ وما بعدها.

(١٢) للاستزادة يُنظر معجم الكنايات العامية والشامية ومعجم العامي الفصيح، د. محمد رضوان الداية، ط دار الفكر ٢٠٠٢- ٢٠٠٤م.

من أقطار عربية متباينة اللهجات، أستطيع أن أؤكد أن الفصحى اللينة هي أنجع وسيلة للتفاهم بيننا، لولاها لاحتاج كلٌّ منَّا إلى الاستفسار عن ربع المفردات العامية المحلية، أو إلى الاستعانة بمجموعة من القواميس الشارحة لها.

* * *